أدب الطفل من منظور إسلامي

السندباد والمع

(١)

الأدب صناعة، شأنه شأن كثير من الصناعات التى تتعلق بالنشاط البشرى ولكنه من أشرف الصناعات لأنه يصوغ وجدان الإنسان، ويشكل نظرته نحو الكون والمجتمع.

والأدب من هذا المنطلق يتكامل مع الدين ويتعاونان معاً، أى الأدب والدين، فى تشكيل إنسان صالح يكون خليفة الله فى أرضه، ينصر الخير عن طريق الدين، ويحقق الجمال عن طريق الأدب.

تلك هي المقدمة الأولى التي تتعلق بمفهوم الأدب، أما المقدمة الثانية فهي تتعلق بالجزء الآخر في العنوان وهو مفهوم الطفل.

□□□

يقول الفلاسفة إن الطفل هو أبوالرجل، وتلك حقيقة لاينكرها أحد فالطفل هو البذرة الأولى التي تشكل الرجل، وسنوات الطفولة هي المسئولة فيما بعد عن تصرفات العاقل وداخل كل رجل كبير طفل صغير، فلو أن هذا الطفل قد ربي تربية صالحة، تحترم إنسانيته وتراعي تكوينه الفطري، فإنه في المستقبل يرد الجميل بأحسن منه، والعكس صحيح أيضاً، فلو أن هذا الطفل عومل بطريقة تتنافى مع آدميته، وتحطم مواهبه فإنه فيما بعد ينتقم من هذا المجتمع الجائر، ويرد له الكيل كيلين.

وخلال هاتين المقدمتين نصل إلى نتيجة مؤداها: إن أدب الطفل هو علم صناعة المستقبل لأن هذا العلم في عبارة موجزة: يشكل وجدان الصغير، الذي سيصبح فيما بعد كبيراً يتولى مقاليد الأمور، وتكون تصرفاته انعكاساً إلى حد كبير لمرحلة الطفولة الأولى، التي تشبه جبلاً من الجليد على حد تعبير فرويد، يتخفى في أعماق المحيط ويتحين الفرصة بين الحين والحين، لكي يطل برأسه فوق السطح.

(٢)

وقد تعرضت صناعة المستقبل المتمثلة في أدب الطفل في عالمنا العربي إلى خطرين كبيرين، أولهما يتمثل في الكتب المدرسية الجافة، التي تحد من خيال الطفل وتلصقه بالوقائع التاريخية المقررة، أما الآخر فهو يتمثل في أجهزة الإعلام العربي، التي تتيح للخيال أن يشطح ويجمح دون رقيب ولا ضابط.

(٣)

أما الكتب المدرسية فهي التي تصدرها وزارات المعارف، بهدف تربية الصغير، وتزويده بالمعرفة، وتحصينه بالخلق القويم، وهي أهداف نبيلة في حد ذاتها، ولكنها تعرض بطريقة لا تتناسب مع مدارك الصغير ولا تنمى خياله، ولا تثير مشاعره، فهي غالباً ما تتمسك بالأحداث التاريخية التي قد يرى في الخروج عليها شيئاً يمس من جلال هذه الأحداث، وهى غالباً ما تركز على القادة العسكريين، ممن أحرزوا بطولات حربية وممن لا يحفلون بالعواطف في ميدان القتال.

وكل ما تفعله هذه الكتب أنها تعرض هذه الأحداث، بأسلوب سلس، يربي الحصيلة اللغوية عند الطالب، ويملأ ذهنه بالمعلومة التاريخية، ثم تعقب كل ذلك بأسئلة تقليدية تقيس قدرات الصغير على الاستظهار والتحصيل.

وتكون النتيجة واحداً من أمرين: إما أن الصغير قد

...لم الصالح

بقلم: أ.د.
عبدالحميد ابراهيم*

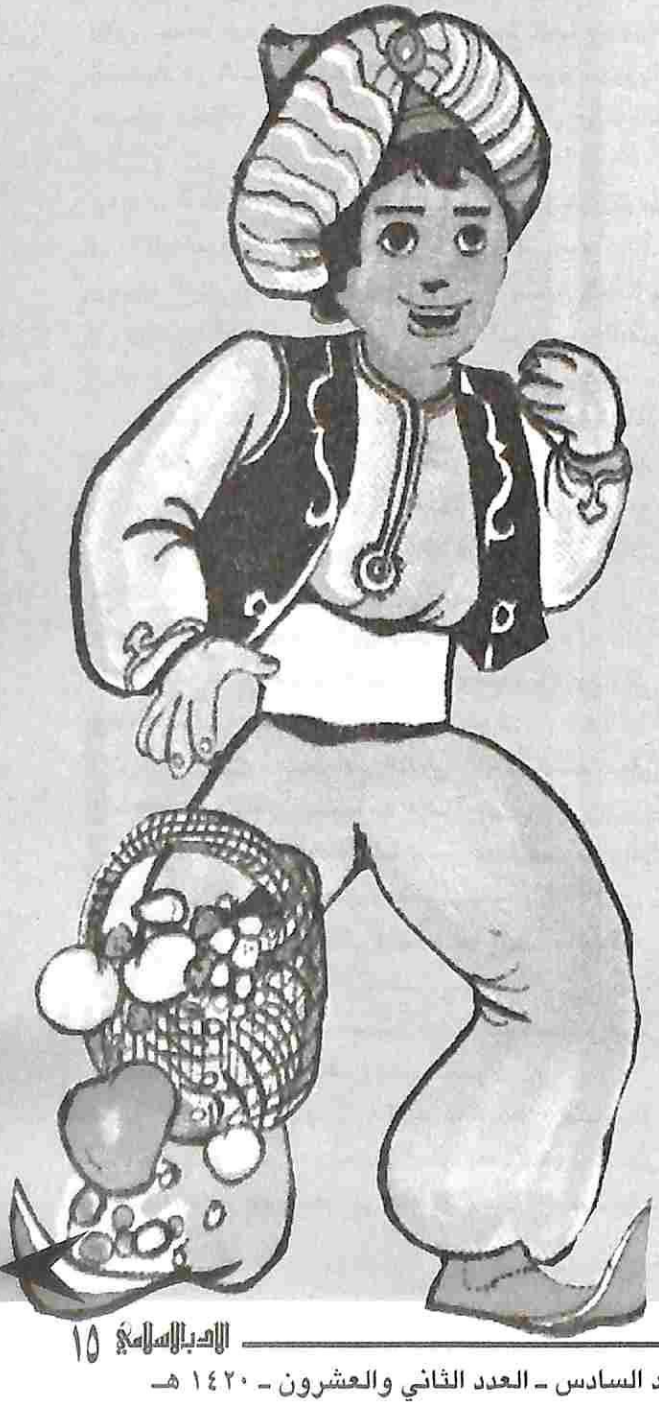

يندمج في هذه الكتب ثم يخرج وهو في بعد واحد، يحيط بالمعلومة ولكنه يفتقد القدرة على التخيل والابتكار، وإما أنه يتمرد على هذه الكتب، ويبحث عن ضالته في القراءة الرخيصة، التي تزاحم عليه الأسواق.

(٤)

وعلى النقيض من ذلك تماماً تأتي الأجهزة الإعلامية التي تدع التصورات الخيالية تشطح دون رقيب ولا ضابط ويهمها بالدرجة الأولى عملية الإبهار التي تنقل الصغير من إثارة إلى إثارة ومن مفاجأة إلى مفاجأة ومن مغامرة إلى مغامرة والصغير يتابع ذلك لاهث الأنفاس مغيباً عن وعيه، قد تحول إلى شيء تسيطر عليه أجهزة الفيديو كليب، وغيرها من تلك الميكنة العجيبة.

وقد روجت هذه الأجهزة للنموذج الغربي وقللت من شأن النموذج القومي، فبدا الرجل الأبيض في الأفلام السينمائية صورة للتحضروالتمدين، يتجول في أحراش أفريقيا وصحراء الشرق ينشر رسالة السلام ويعالج المرضى أو برحم الحيوانات، ويعتز بمعرفته وذكائه، بينما تبدو صورة الرجل الأسود في مظهر التابع المبهور بسيده، تبدو على ملامحه القسوة والغفلة والجهل والتخلف.

(٥)

وقد كانت الأجهزة الغربية أشد خطورة من غيرها فقد استطاعت مع مرور الزمن أن تشكل وجدان إنسان المنطقة، وأن تغرس في داخله عقدة الخواجة التي جعلته ينظر إلى تاريخه وموروثاته نظرة عدم الثقة، يلتمس الحلول في حضارة الرجل الأبيض، وينتظر منه الرأى والتوجيه حتى فيما يمس خصوصياته وثقافته.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ولكننا سنقف

السندباد والمعلم الصالح

بشيء من التفصيل عند مثال واحد، يتناسب مع موضوع أدب الطفل، وهو صورة السندباد في الأدب العربي الحديث فهي صورة لا تنتمي إلى الموروث الثقافي ولا إلى الرؤية التاريخية، ولكنها تضرب بجذورها إلى الرؤية الأوروبية وتعكس ثقافة الحضارة الغربية.

ومن هنا سنقف أولاً بالتفصيل عند صورة السندباد وهي محملة برؤية حضارتها، ثم نتبعها ثانياً بصورة السندباد في الأدب العربي الحديث وهي محملة برؤية حضارة مختلفة.

(٦)

تروي شهرزاد حكاية السندباد أمام شهريار وتبدأ روايتها بالحديث عن حمال فقير تسميه بالسندباد أيضاً، وتصفه الليالي بأنه السندباد البريّ، أو السندباد الحمّال، في مقابل السندباد البحري، الذي يقوم بدور البطل الرئيسي في الحكاية.

جلس السندباد الحمّال بجانب قصر جميل وشاهد النعيم الذي يعيش فيه صاحب القصر من غلمان وبساتين وفاكهة وأطعمة وغناء وشراب وحدثته نفسه بالمقارنة بين حلمه وحلم صاحب القصر، وأنشد في ذلك شعراً يقول فيه:

وأصبحت في تعب زائد
وأمري عجيب وقد زاد حملي
وغيري سعيد بلا شقوة
وما حمل الدهر يوماً كحملى
ينعم في عيشه دائماً
ببسط وعز وشرب وأكل
وكل الخلائق من نطفه
أنا مثلُ هذا، وهذا كمثلي
ولكن شتان ما بيننا
وشتان بين خمر وخل
ولست أقولُ عليك افتراء
فأنت حكيم حكمت بعدل

تنتهي هذه الأبيات: والحمال يعلن أنه لا اعتراض على حكم الله، وهو لم يقدم على هذه الأبيات إلا بعد تردد شديد، وبعد مقدمة طويلة تزيد على سبعة أسطر بينما هذه الأبيات لاتزيد على سبعة أبيات، والحمال في هذه المقدمة الطويلة يستغفر الله في هذه الوسوسة، ويقول:

سبحانك يارب يا خالق يارازق، ترزق من تشاء بغير حساب، اللهم إني أستغفرك من جميع الذنوب، وأتوب إليك من العيوب، يارب لا أعترض عليك في حكمك وقدرتك، فأنت لا تُسأل عما تفعل وأنت على كل شئ قدير، سبحانك تغني من تشاء، وتفقر من تشاء وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، لا إله إلا أنت، ما أعظم شأنك وما أقوى سلطانك، وما أحسن تدبيرك، قد أنعمت على من تشاء من عبادك..»

وتمضي هذه المقدمة الطويلة لتخفف من نبرة التمرد في شعر الحمّال ولكن الأمر لايقف عند هذا الحد، فالسندباد صاحب القصر يسمع بهذه الأبيات، ويستدعي الحمال، فيسأله عنها، ويعتذر الحمال عن هذه الأبيات ويقول:

«**بالله عليك لا تؤاخذني، فإن التعب والمشقة وقلة ما في اليد، تعلم الإنسان قلة الأدب والسفه**».

ويهدئ السندباد من روعه ويقربه إليه، ويريد أن يلقنه درساً حتى لايخدع بالظاهر ويحكم على الأشياء دون أن يدرك حكمة الله. إن السندباد هنا يتحول إلى معلم، ويأخذ في قص مغامراته على الحمال ويقول:

«**ياحمال اعلم أن لي قصة عجيبة، وسوف أخبرك بجميع ما صار وما جرى لي، من قبل أن أصير في هذه السعادة وأجلس في هذا المكان الذى تراني فيه، فإني ما وصلت إلى هذه السعادة وهذا المكان إلا بعد تعب شديد ومشقة عظيمة، وأهوال كثيرة وكم قاسيت في الزمن الأول من التعب والنصب، وقد سافرت سبع سفرات، وكل سفرة لها حكاية تحير الفكر وكل ذلك بالقضاء والقدر وليس من المكتوب مفر ولا مهرب**»

وهنا تفسح شهرزاد المكان وتدفع بالسندباد إلى المقدمة لكي يروي بضمير المتكلم مغامراته. إن الأمر لم يعد يحتاج إلى هذه الطقوس التي تحاور فيها شهرزاد الملك السعيد، وتجلس بينهما دنيازاد لكي تقوم بدور التسخين وإذكاء الموقف إنها تختفي ولا يبدو دورها إلا في الجملة

المحفوظة التي تعلن فقط عن بداية ليلة جديدة، وهي «**بلغني أيها الملك السعيد**» وبعدها ينطلق السندباد في حكاياته إن الجو جوُّ إثارة، والقارئ يلهث مبهوراً مع كل حكاية، وشهرزاد بذكائها القصصي لا تتدخل، ولا تفرض حواراً مع شهريار أو مع دنيازاد إنها تختفي لتترك السندباد، يثير التشويق والإبهار مع كل حكاية جديدة وتتوالي المغامرات، وعقب كل مغامرة يرحب السندباد بصديقه الحمّال، ويعشيه، ويأمر له بمائة مثقال ذهباً، فيأخذها الحمّال ويدعو له ثم ينصرف وهو ينتظر متلهفاً الحكاية التالية.

وتنعقد بينهما صداقة، ويصبح كل منهما ملازماً للآخر، السندباد يعطي ويمنح، والحمال يأخذ ويدعو، دون أن يحقد أحدهما على الآخر، أو ينتقم أحدهما من الآخر، إلى أن تنتهي آخر الحكايات، فيدور بين الصديقين الحوار الآتي:

«**فانظر يا سندباد يابري ما جرى لي، وما وقع لي، وما كان من أمري، فقال السندباد البري للسندباد البحري: بالله عليك لا تؤاخذني بما كان مني في حقك**».

تحمل حكاية السندباد ظلالاً من قصة موسى مع صاحبه الخضر، فإن موسى كان يحكم بحسب الظاهر، فأراد صاحبه أن يلقنه درساً، ينبهه إلى الحكمة الإلهية التي تتجاوز الأسباب الظاهرية ويتلقى موسى الدرس مرة وثانية وثالثة إلى أن يعيه تماماً ويقول لصاحبه «**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)**» (الكهف/٧٣) ومن هنا ليس غريباً أن تتكرر جملة «بالله عليك لاتؤاخذني لما كان مني» في مقدمته حكاية السندباد وفي خاتمتها.

وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي تحمله حكاية السندباد من الرؤية الإسلامية، فهي إلى جانب ذلك، أو بسب ذلك، تنتهي نهاية دينية، تهون من شأن الدنيا، وتحذر من الاعتراض على قضاء الله وقدره، وتذكر بالموت الذي تصفه في جمل كثيرة، تنتهي بها الحكاية فتقول:

«**ولم يزالوا في عشرة ومودة، مع بسط زايد وفرح وانشراح، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب القصور، ومعمر القبور، وهو كأس الممات، فسبحان الله الحي الذى لايموت**».

إن الجمل التي تتحدث عن السعادة في هذه النهاية، أقل بكثير من الجمل التي تتحدث عن الموت، وكل هذا في إيماءة قوية للتهوين من شأن الدنيا.

وليس المراد هو مجرد التهوين من شأن الدنيا، أو التذكير بالموت فحسب أو غير ذلك من تعبيرات يبدو على ظاهرها الجانب الوعظي، ولكن المراد بالدرجة الأولى هو لفت النظر إلى حل المشكلات بطريقة هينة يسيرة، لاتصل إلى حد العنف وإراقة الدماء، فما دامت الدنيا هينة، وكل انسان مصيره إلى الموت، وسبحان الله الحي الذي لايموت، مادام كل ذلك وارداً ويمثل الحقيقة، فإن كل شيء قابل للحل. يكفي أن الموت وحده هو حلال العقد.

نحن إذن في لب مشكلة الفروق بين الغني والفقير، وهي مشكلة في ظل الرؤية الإسلامية طبيعية ومن سنة الحياة ومن هنا لا تضخمها ولا تطلق عليها عبارات عنيفة، من مثل التناقض الطبقي، إنها تسميها فقط اختلاف الدرجة بين الناس، وهي تجعل هذا الاختلاف من سنة الحياة فكل انسان مسخر لخدمة الآخر، وكل إنسان له مواهبه، كل إنسان محتاج للآخر، فليس هناك داع للتضخيم من هذه المشكلة، واعتبار أن الإنسان يقاس فقط بما عنده من مال، إن هذا حكم بالظاهر فكم من صاحب قصر لا يعيش سعيداً، وكم من مال وراءه تعب ومشقة زائدة، إن التضخيم من هذه المشكلة وترديد عبارات من مثل الصراع الطبقي إنما يعكس رؤية تضخم من أمر الدنيا وتجعلها هي همّ الإنسان فلا حياة بعدها، ولاسعادة إلا فيها وغير ذلك من الفلسفات المادية التي تقف عند حدود الظاهر إلى «العبد الصالح» الذي يلقنها درساً لاتنساه.

وقد عكست حكاية السندباد هذا الحل الإسلامي، فالحمال يتلقى درساً ينصرف بعده عن تلك الوسوسة، ويعتذر مراراً لصاحبه ومعلمه وتنعقد بينهما صداقة تذوب خلالها مشكلة الغني والفقير ويعيشان معاً

السندباد والمعلم الصالح

كصديقين وليس كغني وفقير، بل كإنسان يتعامل مع إنسان ويتقي الحقد فلا إسالة دماء، ولا ديكتاتورية طبقة.

(٧)

كانت هذه قراءتنا الخاصة لمغامرات السندباد، والتي تنطلق من رؤية الحضارة العربية الإسلامية، وفي ظني أن مثل هذه النوعية من القراءة في غاية الأهمية لأنها تتلافى الخطرين الكبيرين، اللذين أشرت اليهما أول هذا المقال، والمتمثلين في الكتب المدرسية الجافة من ناحية، وفي الإعلام الغربي من الناحية الأخرى.

إن مغامرات السندباد لاتقوم على النبرة الوعظية الجافة، ولكنها تقوم على خيال مبتكر يحلق في كل اتجاه، ويرضي الصغار والكبار معاً وهي في الوقت نفسه لاتقف عند حد الاثارة و«الفانتازيا» الخيالية دون رقيب ولا ضابط لأنها تقدم أحداثها ملونة برؤية حضارية، يخرج منهما القارئ، صغيراً أو كبيراً وقلبه ممتلئ باليقين والرضا.

(٨)

ولكن صورة السندباد في الأدب العربي الحديث، بعيدة عن هذه الرؤية الأصيلة، وقريبة في معظم الأحيان في الرؤية الغربية التي تنعكس خلال التصورات الآتية.

١ـ قد تتحول مغامرات السندباد إلى مجرد مغامرات خيالية «فانتازية»، تقوم على الإبهار، واستخدام الحيل الميكانيكية، والخدع الأمريكية التي تعتمد على أجهزة الفيديو كليب ويكون همها الإثارة والإبهار، دون أن تصدر عن رؤية حضارية أو هدف تربوي.

٢ـ قد يتحول السندباد إلى إنسان متمرد، لايصطلح مع التراث ولا يدرك القوة العليا، ويكون في مثل هذه الحالة أشبه بروميثوس، سارق النار في الأساطير الإغريقية، الذي يتحدى الآلهة ويسرق منها المعرفة وهي أسطورة تقوم في أصولها على افتراض روح عدائية بين الله والإنسان تدفع الأخير إلى التمرد والعصيان، إنها امتداد لصورة الشيطان الذي يدفعه الكبرياء إلى الخروج على الإله وعصيان أوامره والشيطان ينتسب إلى خلق آخر غير خلق الإنسان، فهو مخلوق من مارج من نار يحرق كل ما حوله أما الإنسان فهو مخلوق من طين، ينبت الزرع ويسقي الضرع، ولا يفترض سوء نية أو عداوة مع الله، فهو يعمل في ظل إله رحيم، يحث على المعرفة، ولايعادي الإنسان، ولايلجئه إلى التمرد وسرقة النار.

٣ـ وقد يظهر السندباد في صورة معارضة لصورة السندباد التقليدي، فهو لايغامر ولا يسعى للاكتشاف، بل يبدو إنساناً محبطاً، لايعيش لشيء ويتحرك في قاع المجتمع، ويلتقي بالمثبطات في كل مكان، ويحمل في داخله بذرة سقوطه وينتهي به الأمر إلى الإحساس العبثي، فيستسلم وينفض يده من الأمر كله.

وغير ذلك من صور تحور من تراثنا، وتشوه رؤيتنا الحضارية وتجعلنا نتنبه ألف مرة ومرة لما يرد إلينا من الخارج، ويشكل وجدان أطفالنا وتستفزنا إلى أن نستثير تراثنا، ونتعامل معه دون وسيط، ونستخرج منه الرؤية التي تتناسب مع حضارتنا، ومع موقفنا من القوة الكونية التي تعمل في ظلالها، ونتصالح معها، وتدفعنا إلى الثقة واليقين.

• رئيس حركة التاصيل الأدبى والفكرى بالقاهرة